

نشرة الإنسان والتطور

بقلم : يحيى الرخاوى

1980-2001

نشرة يومية من مقالات وآراء ومواقف
تعتبر امتداداً محدوداً لمجلة "الإنسان والتطور"

2009-6-24

السنة الثانية

دراسة فى علم السيکوباتولوجى (الكتاب الثانى)



لوحات تشکيلية من العلاج النفسى
شرح على المتن : ديوان أغوار النفس

العدد : 663

(6)



نفسنة الحياة المعاصرة

الطبيب أصبح مهندس للعُقُول البَائِظَةُ (يعنى .. !!)،
واللى برضه اتصلحِتْ.

(الطبيب دا هوّ انا، مش حد غري)

أرجو اعتبار أن مثل ذلك، وايضا ما سوف يرد في الفقرات التالية، هو نوع من النقد الذاتى أكثر منه نقد لأى من الزملاء. هذا تقديم واجب، فكل الأدوار التى انتقدت فيها الطبيب النفسى هى أدوار تصورت أنى قمت بها شخصيا في مرحلة من مراحل ممارستى لمهنتى، فهو نقد ذاتى أساسا، لا أعنى به المهنة ذاتها ولا أى من الزملاء، أرجو أن يعنى هذا التحفظ بعض الزملاء من التصدى للدفاع عن تلك الأدوار التى انتقدتها بقسوة، فالقضية في تصورى ليست قضية تجريح لبعض الاتجاهات، ولكنها خبرة شخصية أساسا، فإذا استيقظ ما يقابلها في نفوس بعضهم، فهذه مسئوليتهم، وإلا فهى لا تعنى إلا شخصى، والحكم في ذلك أولا وأخيرا هما الوعى والمسؤولية. مادامت مسيرة التطور الفردى ليست قانونا واحدا ملزما لكل الناس، فليتوقف من يشاء حيثما شاء، وليساعده في ذلك الطبيب أو غيره، ويظل الفرد هو المسئول أولا وقبل كل أحد عن اختياره.

ربما الذى شحذ بصيرتى فأفيدنى عبر تجربتى الطويلة هو أنى مارست كل أنواع الطب النفسى عبر عشرين عاما (خمسين عاما الآن) جَماس وإيمان في كل مرحلة، فأصابنى من كل ذلك ما أصابنى، ومن ذلك تلك المرحلة التى تعاملت بها مع المخ البشرى كأنه آلة مصقولة متقنة، والتي أتصور أن هذا هو الغالب في كثير من ممارسات هذه المهنة حين يصفها المتن بفقرة تقول: "الطبيب أصبح مهندس للقول البايظة"، هذا ما يحدث إذا ما تعامل الطبيب مع العقل البشرى كنموذج هندسى ميكنى، لا أكثر، ولقد تراجعت عن نقد أنه نموذج حاسوبى (كما جاء في هوامش الطبعة الأولى) بعد أن تعرفت على الحاسوب الأحدث أكثر فأكثر، فالتعامل مع الإنسان (والمخ البشرى) كآلة ميكانيكية كمية، غير التعامل معه كحاسوب حديث، ناهيك عن كونه كيانا بشريا أكثر تعقيدا، وأرسخ تاريخا.... ، وقد أفادنى مؤخرا قياس عمل جلسات تنظيم الإيقاع (المسماة خطأ : الصدمات الكهربائية) بفكرة "إعادة التشغيل" الحاسوب الأحدث، (أنظر يومية؟؟؟ الرد د. على أميمة رفعت).

أما أن الطبيب بدأ مؤخرا يلعب دورا غير التطبيب، ليصبح مهندسا للعقول السليمة (والى برضه اتصلحت") فهى إشارة إلى دور الطبيب النفسى في المجتمع الأوسع مفتيا إعلاميا متداخلا أكثر من اللازم فيما لا يقع تحت مظلة تخصصه.

الفقرة التالية كلها تحديث تقريبا، وهى تنتقد الدور الإعلامى للطبيب النفسى، والمعروف أنى من أكثر من يمارس هذا الدور، فأرجوا ألا ينطبق على كل ما سوف أذكره حالا (أو ينطبق، أحسن من أن يظن الناس أنى أهاجم غري فقط).

المتن

اللَّهُ عَلَيْهِ، وَالسَّتْ بِيَتَمَسَّى عَلَيْهِ!
والشاشة، والواقع، خلاصة القول، منظوم الكلام:
أخِر تمام، فى حَلْ مُعضِلَةِ الأَنَسام

شرح على المتن

أول ما انتبته إلى هذا الدور الخاص للطبيب النفسى كان في الستينات، وكان أحد الزملاء راجعا من الخارج، وله كاريزما خاصة، وذكى، وعالم، وحاضر، وجاهز، وكان هناك برنامج اسمه "نجمك المفضل"، ليلى رستم (أو ربما أمانى ناشد، لا أذكر)، وكنت أتصور من اسم البرنامج أن النجم لا بد أن يكون نجما سينمائيا على الأقل، وإذا بي أفاجأ بهذا الزميل الفاضل، يقول كلاما مهما في كل شيء، كان حاضرا وطيبا ومفيدا وملما بدوره إماما كافيا، ولم أجد في نفسى اعتراض جاهز، أو غيره خفية، في أن يقوم زميل طبيب نفسى لامع بهذا الدور المفيد، وحين جاءت دعوة لى للإسهام في مثل هذا الدور الإعلامى، لم أجد في نفسى مميزات زميلى هذا، فناقشت الإعلامى الطيب الذى عرض على فكرة التوعية الوقائية للمشاهدين، المرحوم فؤاد شاكر (الذى تخصص بعد ذلك في الإعلام الدينى)، عرضت عليه ألا يقتصر البرنامج على الصحة النفسية، وأن الأفضل أن نقدم معلومات علمية أساسية مفيدة يتعرف الشخص العادى من خلالها على "ما هو إنسان"، بما هو إنسان"، لعلنا نعرّف الناس ماهية التركيب البشرى المجهولة لدى أغلبهم، فاقتنع وجعل اسم البرنامج "الإنسان ذلك المجهول" (نفس الاسم الذى استعمله الفيلسوف الأمريكى الكسيس كارليل)، وفعلا قدمنا سلسلة من الحلقات، تحت هذا العنوان "الإنسان ذلك المجهول"، تناولنا فيها جوانب ثقافية علمية طبية عامة وخاصة مثل: العلاقة بين الوراثة والتنشئة، و"حكمة الجسد" في علم الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء)، إلى أن وصلنا إلى العلاقات البشرية (اختصاص الطب النفسى) بشكل أو بآخر.

منذ هذا التاريخ في أوائل الستينات، وحتى الشهر قبل الماضى (منذ أسابيع، حين قبلت أن أقدم البرنامج الأحدث "مع الرخاوى"، في قناة جديدة اسمها "أنا"، وهو برنامج يهدف إلى نقد القيم السائدة، وإعادة التعرف عليها، وهو البرنامج الذى أشرت إليه في بريد الجمعة الماضى)، وأنا أحاول ألا أعتذر عن أداء دورى الإعلامى هذا، وفي نفس الوقت ألا أنساق لما أنتقده الآن.

ما بين هذين التاريخين لم أرفض أن أشارك في برنامج إذاعى أو تليفزيونى إلا نادرا، وأحيانا وصل بي رفضى لما أنتقده الآن أن انسحبت من برنامج كان يذاع على الهواء، أذكر أن البرنامج كان اسمه "ماسبيرو"، ولعل اسم المقدمة الفاضلة كان "شافكى"، وكانت الحلقة عن "أعداء النجاح" حدث فيها - رغما عن المقدمة ربما بسبب طبيبتها - ما لم أتمكن من مواصلة البرنامج للإسهام في تصحيح ما تصورت أنه لا يجوز أن يصل إلى الناس في وجودى هكذا، حيث أن بقائى

كان يعنى أننى مشترك بشكل غير مباشر فيما يضر (من وجهة نظرى)، فاحتججت ، وزعمت أننى قد أصابنى طارئ صحى أثناء التسجيل، وانسحبت - على الهواء- أمام كل المشاهدين، وانتهت المهمة وأنا فى حيرة : إذن لماذا أقبل الإسهام فى هذه التغطية الإعلامية هكذا "عمال على بطال"!!؟.

فيما عدا مثل هذه الحادثة النادرة، لا أذكر أننى اعتذرت بلا عذر حقيقى، كنت أذكر قول أفلاطون فى مقدمة الجمهورية، أن عقاب من يتخلى عن مسؤولية الريادة أو القيادة أو التوجيه العام، هو أن يتولى الأمر من هو أقل فائدة وربما أضّر أثراً ليس معنى هذا أن زملائى أقل قدرة على الترشيد والتثقيف والتوعية، لكن هذا كان هو التبرير الذى أقنع به نفسى معظم الوقت.

كل هذه المقدمة وجدتها ضرورية قبل أن أنطلق إلى المتن والشرح لأن المتن فيه سخريه لاذعة أرجو ألا تصيب إلا شخصى.

نفسنة الحياة المعاصرة

بصراحة، كلمة "نفسنة" ليست الترجمة الدقيقة لأصل الكلمة التى وصلتني بالإنجليزية ، وهو Psychiatrization ، ذلك أن الإعلام عندنا، قد بالغ فى حشر آراء الطب النفسى (وعلم النفس) فى كل أمور الحياة تقريبا، من أول السياسة، حتى الجريمة، مروراً بالتربية، والرياضة، والأسعار، والموضة، والدين، والعنف، واختيار الوزراء، ولون حجرات النوم، ومائدة الطعام، والاستخارة، وخفة دم عادل إمام مقارنة بإسماعيل يس، وسيكولوجية ركاب مترو الأنفاق...و...و...، يكفى هذا.

احتاج الأمر منى الآن وأنا أشرح هذا المتن (وهو تحديث لم يرد فى الطبعة الأولى كما ذكرت) أن أتوقف فى محاولة أن أصنف ما أقوله، (وما أحاول أن أتجنب أن أقوله) وما قد يقوله بعض زملائى فى مثل هذه اللقاءات فوجدت أن أغلبها يمكن أن تندرج تحت ما يلى:

- 1) **بديهيات** لا تحتاج إلى رأى أصلا، (وليس بالضرورة رأى "نفسى") مثل "أن الجريمة لا تفيد"، أو أنه "على الأب أن يكون قدوة لأولاده!! جدا جدا"
- 2) **تحصيل حاصل** قد يأخذ صفة نفسية، لكنه لا يضيف، مثل أن الطالب الذى ينتبه إلى الدرس جيدا، يحتاج مجهودا أقل لمذاكرته (أى والله)
- 3) **شجب أخلاقى** للشرب بأشكاله، مثل ان الغش لا يصح ، لأن من يغش إنما يغش نفسه، وهذا ليس من الصحة النفسية، فى شيء!!
- 4) **نصائح عادية مسطحة** يقولها أى واحد فى أى مناسبة (دون حاجة إلى أن يكون مختصا فى النفس، ولا فى غير النفس) ، مثل أنه على الزوجين أن يجتهدا فى حل مشاكلهما بالسلامة
- 5) **نصيحة نفسية معادة** (حتى لو كانت روجعت وثبتت عدم جدواها) مثل النصيحة الأشهر، أنه "دع القلق وابدأ الحياة". (أنظر المتن بعد)
- 6) **فتاوى سياسية بلغة نفسية**، مثلا: تبرر السلام مع إسرائيل، أو تشجبه (كله ينفع)
- 7) **وضع لافتة تشخيصية** على شخص نشرت حكايته فى الإعلام، دون اللقاء بهذا الشخص، ودون استيفاء المعلومات اللازمة، ودون التأكد من مصداقية المحرر الذى نشر الخبر، ودون عمل حساب تأثير هذه اللافتة عليه أو على ذويه، أو على من هو مثله.
- 8) **الحكم على مسئولية متهم** ارتكب جريمة غريبة، أو نادرة، أو مستهجنة جدا، لم يبت فيها قضائيا بعد، دون فحصه مباشرة، أو ملاحظته، أو الاطلاع على ملفه
- 9) **ترديد توصيات نابعة من ثقافة غير ثقافتنا**، فى سياق لا يناسبها، مثل الكلام عن الحرية وحقوق الطفل، بنفس الألفاظ والتوصيات التى تتردد فى ثقافات أخرى، ولصق الصفات النفسية، وعبارات المديح بهذه التوصيات مجرد أنها مستوردة
- 10) **التوصية الأكيدة بضرورة الذهاب إلى "الطبيب النفسى"** للاستشارة (والعلاج) عمال على بطال"، فى أمور الحياة العادية التى غالبا لا تحتاج لمثل ذلك
- 11) **تشريح شخصية بعض الفنانين أو الفنانات** بما يجب أن يسميه الإعلاميون "تحليل نفسى":، دون لقاءهم، وبأقل قدر من المعلومات، وغالبا دون إذن منهم
- 12) **لصق اسم مرض خاص** (أو صفة مرض عام، مثل الجنون) ببعض رؤساء الدول الذين يمارسون سوء استخدام السلطة فى الحرب أو السلم ، وكأننا لا نعرف أننا بذلك نلتمس لهم العذر (مرضى بقى!!) فيواصلون قتل واستغلال الأبرياء والضحايا.
- 13) وغير ذلك كثير مما هو مثل ذلك

ما هذا؟

لقد اكتشفت أن الشرح فى نشرة اليوم جاء قبل المتن ولم لا؟

فإذا احتاجت أية فقرة خاصة إلى مزيد من التوضيح، فقد أفعل فى هوامش لاحقة. هل عندك - قارئى العزيز- مانع؟

المتن:

**الطبيب أصبح مهندس للعُقُولِ البَائِظَةِ (يعنى ..!!)،
واللى برضه اتصلحِتْ.**

(الطبيب دا هو انبا، مش حد غبرى)

"لما كنا نحن فى عصر القلق،

"نستعيدُ برَبِّنا كما خلقَ"،
يبقى لأزْمَنَ كلنا نقلق قوى،
واللى ما يقلقشنى لأزْمَنَ يكتئب،
إمّال اييه...؟! !!
ثم إنك - بعد ذلك - لم لا بدّ انك تسبب هذا "القلق"
علشان "تعيش"
ثم إن "الحزن" برضه مالوش لزوم
"طنش" تعوم !!
ما هو كله في المافيش
ثم إوعى انك تنام من غير لحاف
أحسن تخاف حيث النصيحة: "لا تخف"
أهمّ شيء في الملف!!
ثم إن الأم لازم، إنها تحب عيالها
دا لزوم فك العقد إلبى في بالها.
فلقد ثبت: إن الجُعد "وحشة قوى"!!
هذا الذى قد أظهرو البحث الفلانى،
"لما عد التانى ساب الأولانى".
ثم أوصى: "إن يكون الكيل عال.
إذ لابد أن الكويس:
هو أحسن مبالدى ما هوش كويس.
إمّال اييه؟"
[هذا برنامج "عفاف هانم"،
بتسأل حضرة الدكتور "فلان"]

هوامش محدودة :

وجدت أن المتن أوضح من أن أضيف إليه شرحا آخر بعد كل هذه المقدمة الطويلة اللهم إلا :

1. إن الإلحاح في ترديد أنه "دع القلق وابدأ الحياة"، (ثم إنك - بعد ذلك : لم لا بدّ انك تسبب هذا "القلق"، علشان "تعيش") دون اتهام الكتاب الأصلي لـ **كارنيجى** بالمسئولية الكاملة عن سلبية تلقى هذا المفهوم، الذى هو من أشهر ما يجرى بين الناس على أنه غاية المراد لتحقيق ما هو صحة نفسية، وقد كررت طويلا أن البديل الحقيقى هو "عش القلق، واقتحم للحياة"
2. إن إشاعة أن ثم شيء اسمه "الاكتئاب القومى"، وأن الحزن مرفوض من أساسه، هى إشاعة تروج مفاهيم سطحية، مسخت عاطفة شديدة العمق والدلالة مثل الحزن (أنظر مثلا :

- ما هو لازم إني أزعل" نشرة 2007/9/7 (بدال ما

تثور تفن)

- أو نشرة 2007/11/18 (مقدمة (3/3) عن الوجدان،

والحزن)

3. كذلك هذا الترويج السطحي ضد الخوف المشروع، كثيرا ما يتكرر في الإعلام، الأمر الذى انتقدته حتى في أرجوزة للأطفال عن الخوف، لا أكتفى إزاءها بالإشارة إلى موقعها في الموقع برابط link، وإنما أقتطف منها ما يلى :

قالوا يعنى، مجسن نية: "لا تخف"

دا مافيش خطر

طب لماذا؟

هو يعنى إنا مش بشر؟

إنما احنا نقولك: "خاف وخوف" !

فيها إيه؟

لو ماخفتش مش حاتعمل أى حاجة،

فيها تجديد أو مغامرة

لو ما خفتش مش حاتأخذ يعنى بالك،

حتى لو عاملين مؤامرة

لو ما خفتش مش حاتعرف تتنقل للبر دكّه

خايف أن تيل شعرك

لو ما خفتش يبقى بتزيف مشاعرك

بس برضه خللى بالك

إوعى خوفك

يلغى شوفك

إوعى خوفك يسحبك عنا بعيد، جوا نفسك

إوعى خوفك يلغى رقة نبض حسك

4. إن استشهاد الإعلام، وبعض النفسين، بما ينشر هنا وهناك من أرقام ونسب مئوية لكثير من الأبحاث (بعضها أو كثير منها مستورد) ، يتكرر بشكل متواتر، وكثيرا ما ينساق الطبيب النفسى إلى تفسير هذه الأرقام وكأنها حقائق مسلمة ، دون (أو قبل) مناقشة مدى مصداقيتها، أو نوع العينة التى أجريت عليها وهل هى ممثلة لما تشير إليه أو لا... إلخ... إلخ (من المتن):
هَذَا الَّذِي قَدْ أَظْهَرَهُ الْبَحْثُ الْفُلَانِي،
"لَمَّا عَدَّ التَّابِي سَابِ الْأَوْلَانِي"،
ثُمَّ أَوْصَى: "أَنْ يَكُونَ الْكُلُّ عَالًا."

وبعد

أكتفى بهذا القدر اليوم لنلتقى الثلاثاء القادم (ما أمكن ذلك)، على جزء جديد من المتن يقول:

وساعات أشوفه مطيباتي مُغْتَيَّر،
آه يا حلاوته ومبوا ييلبس خيدوده الإبتسامه،
أو لما ييشخبط ويكتنك حبوب "منع السامة"،
أو لما يوصف حقنة المحاياة تقوم تمسح مشاعرك
"بالسلامة".

-11-

وساعات أشوفني كما "الأغا"
بيضحك الملكة، ويستمعل من الظاهر، بس.

-12-

وساعات جنابه يلف أحكامه ف زواق، مش أى "حاجة".
يفتى كما قاضى الزمان وكأنه جاب المستخى، يقولك انك :

إوعى "تزعل"، أو تشوف : "بيطل سماجة"،
"كن منافق"، يعنى "جامل"، "مشى حالك".
تبقى ماشى فى السليم، مهما جراك.
والعواطف تتشجن جوا العيون زى البضاعة.
(كل ساعة نض ساعة).
"يعنى إيه ؟؟!"
".. مش مهم".